تصدير عام

غيرُ مجدٍ فى مِلَّتى واعتقادى إهمال الدور الرائد الذى قام به مجموعة من المفكرين والأدباء ، الذين أثروا حياتنا الفكرية والأدبية ثراء منقطع النظير . لايصح أن نقول إننا جيل بلا أساتذة فننكر دور من سبقونا الذين شقوا طريقهم وسط الأشواك والصخور وكانت الأرض بالنسبة لهم ليست سهلة ممهدة ، بل كان لهم من الأعداء أضعاف ما لهم من الأصدقاء ومن محبى البحث عن الحقيقة والاعتراف بالفضل لأهله .

لا خير فينا نحن العرب إذا لم نعترف بفضل من سبقونا . وإذا توصَّل اللاحقون إلى نتائج أكثر دقة من السابقين ، فإن الفضل الأكبر إنما يرجع إلى السابقين أكثر بكثير مما نجده عند اللاحقين .

وأذكر أن كلود برنار فى كتابه « مدخل إلى دراسة الطب التجريبى» قد أشار إلى أن اللاحقين يجب أن يتذكروا باستمرار أنهم لم يتسنَّ لهم التوصل إلى نوع من التقدم الأفضل إلا بفضل السابقين . وذكر مثالاً واضحاً هو أن الطفل إذا صعد فوق كتفى أمه ، فإنه يرى مدى من الرؤية أوسع مما تراه الأم ، لأنه يرى من أعلى ، ولكن لابد أن يتذكر الطفل أنه لولا صعوده فوق كتفى أمه لما استطاع التوصل إلى المدى الواسع من الرؤية . مثال أعتبره غاية فى العمق والثراء .

والشيخ الإمام محمد عبده ، لأنه - أولاً وأخيراً - يعد فرداً من أفراد البشر ، فلابد أن يقع فى بعض الأخطاء سواء من حيث المنهج ، أو الآراء التى قال بها. إنه لم يكن قِدِّيساً . ثم إن الحقيقة الكاملة تعد عسيرة المنال ، أو مستحيلة ،

فكيف ننتظر - إذن - من فرد من أفراد البشر - حتى لو كان رائداً من الرواد، أو مصلحاً من المصلحين ، أو مفكراً من المفكرين - أن يتوصل إلى الحقيقة الكاملة .

ثم أين هى الحقيقة الكاملة ونحن البشر بطبيعتنا الوصول إلى الصواب تارة والوقوع فى الأخطاء تارة أخرى ؟ !

واجب علينا - إذن - الاعتراف بفضل السابقين ، وإلا سنكون كالقطة التى تأكل أولادها . لقد قام السابقون بالجهد ، والجهد الكبير للتوصل إلى الحقيقة من منطلق حبهم لمصر والعروبة والإنسانية فى كل زمان ومكان . فمن واجبنا- إذن - أن نبادلهم حباً بحب وعطاءً بعطاء ؛ وإلا سنكون كالذئاب ، أو أضل منهم سبيلاً .

ولكن ماذا نفعل أمام ثقافة الجهال وأهل الظلام ؛ من أنصاف المفكرين وأشباه الدارسين والذين تعد أفكارهم ظلاماً فى ظلام - وإن كان أكثرهم لايعلمون - سواء منهم من رحل عن دنيانا ، أو مازال باقياً على قيد الحياة .

لقد قال الشيخ محمد عبده بما قال به ، وكتب ما يَعتقد أنه الصواب ؛ فمن واجبنا - إذن - دراسة أفكاره ومناقشة آرائه . ويقينى أن الدارس والقارئ لأفكاره سيجد فيها الكثير من الخير والصواب فى مجال خدمة الحضارة والإنسانية .

أما إذا قمنا بإهمال آرائه تارة ، وإعلان الحرب على رأى أو أكثر من آرائه دون دراسة متأنية لكل آرائه ، فإن هذا هو الشر المطلق والكارثة الكبرى والتى لا نجدها إلا فى دولنا العربية للأسف الشديد . وليرجع القارئ إلى الفصل الذى تحدثنا فيه بإيجاز عن أثره فى عالمنا العربى بصفة خاصة، وسوف يجد أن الإنصاف للشيخ محمد عبده كان من جانب الغربيين أضعاف ما وجدناه عند العرب !!!

ثم إننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الفكر لا يُحارَب إلا بالفكر ، أما أن نلجأ إلى المنع والتحريم والتكفير والضرب تحت الحزام كما يفعل الأشباه والأنصاف وأنصار محاكم التفتيش ، فإن هذا لا يدلنا إلا على الإفلاس الفكرى والتخلف العقلى من جانبهم والعياذ بالله . وكم عانى عالمنا العربى من مؤامرات هؤلاء المتخلفين وضعاف العقول والذين هم على درجة دنيا من الذكاء . وكاتب هذه الصفحات قد لحقت به المآسى والشرور من جانب هؤلاء الأوغاد وسفاكى الدماء ، فقد قُدِّر له أن يكون أول أستاذ للفلسفة فى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر ، يتم تقديمه لمحكمة الجنايات وذلك فى الخامس عشر من شهر مايو عام ١٩٩٥م . وهذه الحادثة المؤسفة[١] والتى أدت بى إلى أن أكون مهمشاً ومكروهاً حتى الآن فى مصر وأكثر البلدان العربية ، كانت لها صلة - كما سنرى - بآراء الشيخ محمد عبده .

ولابد أن أذكر للقارئ الكريم أن أول صلة لى بآراء الشيخ محمد عبده كانت منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، فقد كنت حريصاً على حضور ندوات مفكرنا الكبير عباس محمود العقاد فى صالونه الشهير « صالون العقاد » ، وأذكر أنه أشاد أكثر من مرة بآراء شيخين من المشايخ المصريين ، هما الشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت .

كان هذا ، كما قلت ، منذ أكثر من خمسين عاماً ، وعلى وجه التحديد عام١٩٥٤م وبعد التحاقى بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (وتسمى حالياً جامعة القاهرة) ومن هنا ، وفى ذلك الوقت بدأ اهتمامى بالتعرف على أفكار الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت ، وقد ركزت أكثر على آراء الشيخ محمد عبده ويرجع ذلك إلى أن الدكتور عثمان أمين - وهو من هو فى مجال الفلسفة - كان يقوم بتدريس آراء الشيخ محمد عبده فى مقرر الفلسفة

(١) سيجد القارئ جزءاً يسيراً من هذا الموضوع أو هذه المحنة فى كتابنا « العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر ». أما كل أبعاد المحاكمة فإننى أعد لها كتاباً مستقلاً أرجو أن أنتهى منه إذا كان فى العمر بقية .

الحديثة والمعاصرة ، وخاصة أنه كان يرى أن الشيخ محمد عبده كان فيلسوفاً .

ثم استمرت اهتماماتنا كطلاب للفلسفة بالشيخ محمد عبده ، وخاصة أن الدكتور زكى نجيب محمود - وكنا نطلق عليه أستاذ الأساتذة - كنا نسأله : هل الشيخ محمد عبده يعد فيلسوفاً ؟ فكان يقول لنا إنه لا يعد فيلسوفاً لأن شرط الفيلسوف أن يكون صاحب منهج يختلف عن منهج السابقين عليه ، فلو كان أرسطو تلميذ أفلاطون فى الأكاديمية قد تابع أستاذه فى منهجه ، لما كان فيلسوفاً. ووجهة النظر هذه التى قال بها الدكتور زكى نجيب محمود كنت أتفق معه فيها وأختلف مع أستاذى الدكتور عثمان أمين حين قال بأن الشيخ محمد عبده يعد فيلسوفاً .

ثم استمر اهتمامى بالشيخ محمد عبده رغم أننى كنت أختلف معه فى كثير من آرائه لإيمانى بالعقلانية المطلقة ، وسبب هذا الاهتمام كان راجعاً إلى أننى فى زياراتى المتكررة - التى لا حصر لها - لأستاذى المفكر الكبير زكى نجيب محمود فى منزله بالجيزة ، كنت أتناقش معه حول تيار من التيارات الفكرية الثلاثة ، وأعنى به تيار الأصالة والمعاصرة ، وهو يعد تياراً من تيارات ثلاثة ، أما التيار الأول فإنه يمثِّل الوقوف عند التراث وعدم تجاوزه فى كل صغيرة وكبيرة . والتيار الثانى على نقيض التيار الأول ، يمثِّل الغرب ، والغرب فقط ، بحيث تكون الثقافة الأوربية هى المعيار . وكنت أقول لأستاذى إن الشيخ محمد عبده يمثِّل التيار الثالث ، تيار الأصالة والمعاصرة ، إلا أننى كنت ألاحظ على أستاذى بعض التحفظ بالنسبة لهذا الرأى ، لأنه كان يعتبر الشيخ محمد عبده أقرب إلى التيار الأول (تيار التراث) ، ولكن زكى نجيب محمود - بوجه عام - كان لا يقلل من أهمية الشيخ محمد عبده فى الكثير من آرائه المهمة والتى تمثل دفعة تنويرية ، وخاصة فى عصره .

وتدور الأيام دورتها ، فيطلب منى كتابة دراسة نقدية مطوَّلة لكتاب من كتب الشيخ محمد عبده ، هو كتاب « الإسلام دين العلم والمدنية » ، وقد

صدرت للدراسة ونص الكتاب أربع طبعات حتى الآن . وكنت قبل كتابة هذه الدراسة النقدية قد كتبت عنه دراسات موجزة وأشرت إليه فى العديد من كتبى ومن بينها « ثورة العقل فى الفلسفة العربية » وخاصة حين فرَّقت بين الثورة من الخارج ، والثورة من الداخل . وقلت إن الشيخ محمد عبده يمثل ما أطلق عليه «الثورة من الداخل» ، أى : داخل التراث ، لأنه سعى إلى التجديد ، تجديد الفكر الدينى ، ولم يكن رافضاً للتراث كله جملة وتفصيلاً (الثورة من الخارج)، فالتجديد يمثل الثورة من الداخل Reconstruction لأنه إعادة بناء وليس هدم المعبد على من فيه .

وقد أشرت إلى ذلك أيضاً فى كتب أخرى لى ، من بينها وعلى سبيل المثال لا الحصر : كتاب « العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر » وكتاب «ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة ».

وقد فكر المجلس الأعلى للثقافة فى إقامة مؤتمر عالمى ضخم عن الشيخ محمد عبده اعترافاً بمكانته الكبرى ، وتم اختيارى مقرراً لهذا المؤتمر العالمى الضخم ، فكانت مناسبة لإصدار مجموعة من الكتب والدراسات له وعنه . فتم تكليفى بالإشراف على مجلد تذكارى ضخم عن الشيخ محمد عبده ، وقد تم إصدار هذا المجلد منذ حوالى عشر سنوات وشارك فيه باحثون كثيرون .

كما طلب منى المجلس الأعلى للثقافة كتابة تصدير لرسالة مهمة من رسائل أو كتب الشيخ محمد عبده ، وأعنى بها «رسالة التوحيد» ، وقد صدرت الطبعة الجديدة مع تصدير لها فى نفس العام الذى صدرت فيه طبعة جديدة من كتاب مهم جداً عن الشيخ محمد عبده ، وأعنى به كتاب « رائد الفكر المصرى الشيخ محمد عبده » للدكتور عثمان أمين ، والذى كان يشير إليه باستمرار فى محاضراته لنا بكلية الآداب ، وقد صدرت طبعته الجديدة بتصدير لى ، طلبه منى المجلس الأعلى للثقافة بمصر .

وأيضاً تدور الأيام دورتها ويأتى عام ٢٠٠٥م وهو العام الذى يوافق مرور قرن من الزمان على وفاة الشيخ محمد عبده ، ومولد زكى نجيب محمود ، ومولد يحيى حقى الأديب ، ومولد أستاذى ومعلمى الأب جورج شحاتة قنواتى والذى كان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينيكان بالقاهرة حتى وفاته ، كما كان خير سفير لمصر فى أرجاء العالم شرقاً وغرباً ، وإن كان أكثرهم لايعلمون .

وأذكر أننى كتبت مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات عن الشيخ محمد عبده ، وخاصة فى مناسبة مرور قرن من الزمان على وفاته ، وأذكر منها ما نشر فى مجلة « عالم الفكر » بالكويت ، عن دور الفكر المستنير فى معركة الحرية ، وتتضمن جزءاً عن الشيخ محمد عبده ، ومقالة مطوَّلة نشرت بمجلة « أدب ونقد » التى تصدر فى مصر ، ومقالة بمجلة « أون » التى تصدرها جامعة عين شمس ... إلى آخر المقالات التى تناولت كل مقالة أو دراسة منها جانباً من جوانب حياة وفكر الشيخ محمد عبده ، وما أكثرها وما أعظمها .

أما الاحتفالات بالشيخ محمد عبده فى مناسبة ذكراه المئوية ، سواء داخل مصر التى ولد فيها ، أو فى عالمنا العربى الذى أضاءه الشيخ الإمام محمد عبده بأفكاره الثرية ورؤيته الإصلاحية ، فإننا نأسف أشد الأسف على أنها جاءت احتفالات هزيلة تافهة تحدَّث فيها أناس كان من بينهم من لم يتعرف على أفكار الشيخ محمد عبده من قريب أو من بعيد ، وقد حضروا للحديث عنه من منطلق الشللية البغيضة التى أفسدت علينا حياتنا الثقافية فى أرجاء العالم العربى كله. إنهم يمثلون أشباه المثقفين وأنصاف الباحثين والذين جعلوا حياتنا سواداً فى سواد، ونجدهم يتكلمون فى أى مجال ، دون فهم من جانبهم لأى مجال من مجالات حياتنا الفكرية والثقافية ، وتمثل أفكارهم ظلاماً فى ظلام وجهلاً على جهل ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

ونستثنى من هذه الاحتفالات الهزيلة احتفالاً ضخماً رائعاً أقامته الجمعية

الخيرية الإسلامية بجامعة الأزهر داخل القاعة التى يطلق عليها اسم الإمام ، قاعة أو مدرَّج الشيخ محمد عبده . وقد قامت الجمعية الخيرية بالإعداد لهذه الاحتفالية لمدة شهور طويلة ، وأصدرت عنه كتاباً يتضمن كل وقائع الاحتفالية . وقد أدركت الجمعية الخيرية الإسلامية أن واجبها يقتضى ذلك ، إذ لا يمكن أن تُذكر الجمعية الخيرية الإسلامية إلا ونذكر الشيخ محمد عبده وأفكاره الأولى التى كانت نواة لإنشاء الجمعية ونشاطها .

وإذا كان محور كتابنا الذى نقدمه اليوم للقارئ الكريم يدور حول قضايا النور والتنوير ، فإن من أسباب ذلك أن الشيخ محمد عبده قد دعانا إلى فكرة محورية هى فكرة الحرية ، وذلك من خلال نقده للسلطة الدينية ، ونعتقد من جانبنا أنه لا تنوير بدون حرية ، ولا حرية بدون تنوير ، وللحرية صور عديدة ولا حصر لها ، سواء ظهرت فى جوانب فكرية أو جوانب عملية إصلاحية تطبيقية . وكم أسأنا إلى فهمنا للحرية ، سواء فى أبعادها النظرية أو أبعادها التطبيقية . فيا أيتها الحرية كم أسأنا إليك !! وقد آن الأوان لإعادة النظر فى الحرية والتحرر. فكم من الجرائم والنكبات والكوارث قد ارتكبت باسم هذا المفهوم وهذا المسمَّى، رغم أن الحرية فى حد ذاتها بريئة تماماً من النتائج التى حدثت نتيجة الفهم الخاطئ عن قصد أو عن غير قصد لهذا المفهوم ، مفهوم الحرية ، حتى جاوز الظالمون المدى وبرَّروا أفعالهم باسم الحرية.

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن موضوع الحرية والتحرُّر يعد على جانب كبير من الأهمية وخاصة فى العصر الذى نعيش فيه . إنه قضية الساعة وكل ساعة . إنه مطلب حيوى بنَّاء وخاصة بالنسبة لدول العالم الثالث. إنه قضية مصير ، قضية حياة أو موت ، قضية أن أكون أو لا أكون . نقول هذا ولا بد من القول به ما دمنا نجد على أرضنا العربية من يفسد فيها ، وينظر لفكرة الحرية نظرة هامشية .

وإذا كانت الدول الأوربية عامة ، وأمريكا أيضاً قد استطاعت بلورة أكثر

الأفكار التى تدور حول الحرية والديمقراطية والتحرر وحقوق الإنسان ، إلا أننا فى عالمنا العربى ما زلنا نجد مفهوم الحرية وما يتعلق به من مفهومات وقضايا ومشكلات سواء على المستوى النظرى أو المستوى العملى من أكثر المفهومات غموضاً والتباساً .

إن موضوع الحرية - والحرية الفكرية على وجه الخصوص - يرتبط ارتباطاً رئيسياً بالدعوة إلى احترام حقوق الإنسان ، إنه يعد مطلباً رئيسياً تماماً كما نقول بحق الإنسان فى الحياة ، بحيث لا نتصور وجوداً للإنسان إلا بأن يكون له الحق فى التعبير عن رأيه ، وبالتالى حق الآخرين فى التعبير عن آرائهم سواء اتفقوا معه أو اختلفوا .

ومن الواضح أن موضوع «الحرية الفكرية» يرتبط بالعديد من الزوايا والمجالات والأبعاد ، من بينها القانون الدولى والأمن والتنمية الاقتصادية وتطور النظام السياسى وحقوق الإنسان كمثل أعلى قانونى ، ومستقبل حقوق الإنسان فى السياسات الدولية ... إلى آخر هذه الزوايا والأبعاد .

إن موضوع «الحرية الفكرية» لا يعد تعبيراً عن طابع محلى إقليمى ، بل إنه يعد معبراً عن دعوة عالمية ، وإذا لم تشارك كل الدول فى دراسة أبعاد الحرية الفكرية من حيث ارتباطها باحترام حقوق الإنسان ، فلن تتحقق الحرية الفكرية فى أعلى مستوياتها.

ودليلنا على ذلك أن دولاً لا نجد لديها إيماناً بحق الأفراد فى الحرية الفكرية والتعبير عن آرائهم ، قد تشكِّل خطراً على دول أخرى نجد فيها التزاماً وتطبيقاً للحرية الفكرية . وهذا ما قد يؤدى بالدول التى نجد فيها حرية فكرية إلى التدخل فى شؤون دول أخرى تعد فى نظرها غير مدافعة عن الحرية الفكرية، بحيث تضرب عرض الحائط بكل أبعاد وصور الحرية الفكرية ، وخاصة إذا كانت تملك الأموال التى عن طريقها تؤثر فى إيجاد قيود على كل صور الحرية الفكرية .

لابد - إذن - من إيجاد مجموعة من القواعد لكل الدول وكل الشعوب بحيث توجد معاملة مشتركة عالمية لكل الأشخاص على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم والدول التى ينتمون إليها ، وبدون ذلك لن نجد ربطاً بين الحرية الفكرية من جهة والدعوة إلى احترام حقوق الإنسان من جهة أخرى ، وهذا ما نجده سواء من قريب أو من بعيد فى أفكار وآراء واتجاهات الشيخ محمد عبده .

وإذا ركزنا على عالمنا العربى بصفة خاصة ، فإننا نستطيع القول بأننا لانتصور رؤية مستقبلية للحرية الفكرية من حيث ارتباطها بحقوق الإنسان ، إلا بالسعى بكل ما نملك من قوة نحو تقديس العقل والمعقول والتمسك بثقافة النور والتنوير . ومن المؤسف أن الفكر التنويرى العربى - وخاصة ما ارتبط منه بموضوع الحرية الفكرية وموضوع حقوق الإنسان والذى ازدهر إلى درجة كبيرة خلال فترات طويلة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين - يحدث له الآن نوع من التراجع خاصة بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، بل يتعرض للهجوم من جانب أنصار الظلام والرجعية والإرهاب والكتب الصفراء . إن الحرية الفكرية - كما سبق أن أشرنا - إنما ترتبط بالحياة والوجود. أما الظلام فإنه يرتبط بالعدم والفناء. ولا أحد منا يملك ذرة من عقل يرتضى لنفسه حياة الظلام ، وإلا كان من مملكة الخفافيش التى تفضل الظلام والأماكن المهجورة .

بل نجد الكثير من المعوقات التى تقف عقبة فى طريق تحقيق الحرية الفكرية من خلال علاقتها بحقوق الإنسان . ومن الملاحظ أن أكثر هذه المعوقات نجدها آتية من أنصار الإرهاب والجمود ، أى : الفكر الذى يعد معبِّراً عن قهر الرأى الآخر . ودليلنا على ذلك أننا قد نجد المعبِّرين عن هذا النوع من الفكر الزائف - فكر الإرهاب - من أكثر الناس حرصاً على الدعوة إلى إلغاء الحرية الفكرية وإعلان الحرب على حقوق الإنسان . ولو كنا قد وضعنا نُصب أعيننا أفكار الشيخ محمد عبده لكان الحال قد أصبح غير الحال .

نعم نجد ذلك واضحاً فى كتاباتهم التى تحمل طابع الهجوم على الحضارة الغربية التى لم يعلن الحرب عليها الشيخ محمد عبده - تلك الحضارة التى تمثل فيما نرى أعظم أنواع الحضارات الإنسانية - ومحاربة التنوير كما يفعل بعض رجال أو جنود الإرهاب الفكرى أو أنصار محاكم التفتيش ، والقول من جانبهم بأن الحل هو التراث .. وكلها دعوات تعد - كما قلنا - فى ظاهرها وباطنها معبِّرة عن رفض الحرية الفكرية وإلغاء كل صور حقوق الإنسان . نقول هذا ونؤكد على القول به ، خاصة أن كاتب هذه الصفحات - وكما أشرنا فى بداية تصديرنا - قد قُدِّرَ له أن يقف متهماً أمام محكمة الجنايات منذ عدة سنوات ، وعلى وجه التحديد فى الخامس عشر من شهر مايو عام ١٩٩٥م . ونود أن نؤكد على أن تحقيق الحرية الفكرية مستقبلاً من حيث ارتباطها بالدعوة العالمية إلى احترام حقوق الإنسان ، لا يكون من جانب الدول فحسب ، بل أيضاً من جانب المثقفين . فهل أدى المثقفون واجبهم فى مجال الدفاع عن الحرية الفكرية ؟ كلاَّ ثم كلاَّ ، فقد نجد محاربة للحرية الفكرية من جانب المثقفين أكثر ضراوة مما نجده من جانب أنظمة الدول التى ينتمون إليها ، بحيث أصبحنا فى مجال الثقافة - كما قال توفيق الحكيم - ننتمى إلى عالم الصراصير وليس عالم النمل والنحل ، فعالم الصراصير يعد تعبيراً عن التنازع والأنانية ، أما عالم النمل والنحل فإنه يعد معبراً - على العكس - عن التعاون والتآلف والغيرية .

ودليلنا على ذلك أننا فى عالمنا العربى بصفة خاصة قد نجد حرباً على الحرية الفكرية وحقوق الإنسان من جانب المثقفين أنفسهم ، وكم وجدنا آلاف الأوراق عند هؤلاء تعد معبِّرة عن القهر والدفاع عن الديكتاتورية فى مجال الفكر بصفة خاصة ، وإن كان أكثرهم لا يعلمون . وهل يمكن أن ننسى قيام بعض أشباه المفكرين وأشباه المثقفين بالتمجيد لهذا الطاغية أو ذلك من الطغاة الذين فرضوا أنفسهم فرضاً على شعوبهم ؟

وبوجه عام فإنه يمكننا القول بأن موضوع الحرية الفكرية من خلال ارتباطه

بالدعوة العالمية لاحترام حقوق الإنسان ، قد نجد له بعض الجوانب المشرقة ، ومن خلال صور ومجالات شتى ، ليس فقط من خلال الشيخ محمد عبده ، بل نجده عند أمثال رفاعة الطهطاوى وعبد الرحمن الكواكبى (الإصلاح الفلسفى التنويرى) وقاسم أمين (قضايا المرأة) ومصطفى عبد الرازق (الفكرالفلسفى التنويرى) وأحمد لطفى السيد (الثقافة الإنسانية العالمية) وطه حسين (رائد التنوير فى عالمنا العربى المعاصر) وتوفيق الحكيم (المنظور العلمانى التنويرى) ومحمد عزيز الحبابى (الرؤية الحضارية الثقافية) وزكى نجيب محمود (الرؤية العقلية المستقبلية) إلى آخر هذه النماذج والصور[1].

وإذا كان عالمنا العربى - بوجه عام - قد باعد بين نفسه وبين تحقيق الحرية الفكرية، من حيث ارتباطها بالدعوة العالمية لاحترام حقوق الإنسان ، فترات طويلة من الزمان ، فإن تحقيق ذلك قد أصبح الآن شيئاً صعباً ، لكن لابد من تحقيقه وأن نقطع فيه خطوات وخطوات ، لأنه - كما سبق أن أشرنا - قضية الساعة ، قضية أن نكون أو لا نكون .

وقد كثر فى الآونة الأخيرة الحديث عن الديمقراطية وضرورة تحقيقها فى دول العالم العربى . ومن الغريب بل ومن المؤسف أن تقوم أمريكا وبعض الدول العربية بالتأكيد على أن خلاص العالم العربى إنما يتمثل فى ضرورة تطبيق الصورة الأمريكية للديمقراطية . نجد هذا فى العديد من الكتابات وفى الكثير من وسائل الإعلام ومن بينها القنوات الفضائية ، لدرجة أننا نجد قناة فضائية تقوم أمريكا بتمويلها وتشجيعها إلى أكبر درجة ، نجد هذه القناة تبين لنا أن الديمقراطية بالصورة الأمريكية إنما تمثل الفردوس المفقود والجنة التى لابد أن نلجأ إليها وذلك إذا أردنا لحياتنا أن تكون صورتها أفضل من الحياة الحاضرة والحياة الماضية .

---

(١) راجع مقالتنا عن دور الفكر المستنير فى معركة الحرية (مجلة عالم الفكر بالكويت) وكتابنا : العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر (القسم الأول) .

ومن المؤسف أننا نجد نفراً من بيننا يقوم بتشجيع وتأييد ما يقال عن دعوة أمريكا للديمقراطية دون أن يضع فى اعتباره عدة أمور رئيسية من بينها التجاهل التام لتاريخنا الحضارى والثقافى ، ليس بالنسبة للتاريخ العربى القديم فحسب ، بل تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بالإضافة إلى أنه من المعروف أن مذهباً أو اتجاهاً ما لن يُقدَّر له الاستمرار إلا إذا استند إلى جذور من داخلنا نحن، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون كمن يضع البذور فى غير أرضها .

حلِّلوا ما شئتم أبعاد تاريخنا فى الماضى ؛ ستجدوا أننا نجد فى هذا التاريخ العديد من الأفكار والآراء والمذاهب التى تعد معبِّرة عن الديمقراطية بصورة أو بأخرى ، وإذا وجدنا عيباً أو تقصيراً فإن العيب ليس فى تلك الأفكار المعبِّرة عن الديمقراطية ، والتى هى راسخة فى تاريخنا ، بل العيب فى الفهم الخاطئ من جانبنا نحن لهذه الفكرة أو تلك ، بالإضافة إلى تطبيقاتنا الخاطئة .

ومن المعروف أن الديمقراطية لا تُفرض بقرار أو مجموعة من القرارات ، وخاصة إذا كانت قرارات من الخارج وليست نابعة من الداخل .

ومن المعروف أيضاً أن الثقافات التى يُقدَّر لها الاستمرار والنمو والازدهار إنما هى الثقافات التى تبدأ بجذور داخلية . وخصائص أى شعب ليست بالضرورة تعد مطابقة لخصائص شعب آخر . وهل إذا ارتدى العربى الرداء الأمريكى فإنه سيصبح بالضرورة أمريكياً ؟ أين التراث ؟ أين الهوية ؟ أين ثقافة آلاف السنين؟ أين الآمال والآلام المشتركة التى وحَّدت العرب وجعلتهم فى بوتقة واحدة بحيث نقول كما قال القائل :

هــذه آثــارنا تــدلُّ علينـــا فانظـروا بعدَنـا إلى الآثـار ؟!

حذارِ من إغفال تاريخنا العربى ، وأمة ترضى لنفسها أن تترك تاريخها المزدهر المشرق تكون كما قال طه حسين وزكى نجيب محمود كنصف إنسان ، ولا أحد يرتضى لنفسه أن يكون نصف إنسان .

إنه واجب مقدس على كل مهتم بالثقافة من قريب أو من بعيد : إبراز أهمية أن تكون الديمقراطية نابعة منا نحن ، وليس عن طريق قرار من الخارج . ويقيني أن هذا الواجب يعد فى مقدمة واجباتنا الحيوية والمهمة . وإذا حدث تقصير فإننا لابد أن تكون لدينا الشجاعة لكى نقول إننا نتحمل مسؤولية ما حدث ، أين الأيديولوجية العربية المشتركة ؟ أين المشروع الثقافى والحضارى الذى يجب أن يعبِّر عنه كل مثقفى الأمة العربية من مشرقها إلى مغربها ؟ أين فهمنا العميق واستفادتنا من أفكار الشيخ محمد عبده ؟ يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا نعيش فى عصر يحتاج إلى تضافر الجهود نحو إرساء معالم الحرية من داخلنا نحن ، من تاريخنا بحيث يكون شعارنا جميعاً أن من ليس له تاريخ فلا حاضر له ولا مستقبل . إنه سيصبح كالهنود الحمر ، ذكرى .. مجرد ذكرى . هل اهتم مفكرونا ومثقفونا بدراسة تاريخنا الحضارى والثقافى وماتعلَّق منه بالديمقراطية والحرية والتحرُّر والقيم الكبرى الخلاَّقة ؟

إن دستوراً فكرياً وثقافياً للأمة العربية وخاصة فى هذا المجال ، مجال الديمقراطية والحرية لا يمكن أن يتحقق إلا بمشروع متكامل يتفق المثقفون والمفكرون العرب على ضرورة إرسائه عن طريق الكتابات الصحفية وغيرها والبرامج الإذاعية والقنوات التليفزيونية وما أكثرها ، والكتب والمؤلَّفات ؛ بحيث لا نجد صوتاً يعلو فوق صوت هذا المشروع الداخلى الذى يقدس الحرية. إنه مشروع الساعة وكل ساعة ، فلنبادر إلى التعبير والسعى نحو تحقيقه. لا يكفى أن نكون مجرد متفرجين بل لابد من السعى الدءوب . إن من يجلس على الهامش - أى : فى الفِناء - فإن مصيره سيكون الفَناء . وما أكثر المجالات التى من خلالها نستطيع السعى نحو الأيديولوجية العربية المشتركة فى مجال الديمقراطية . ومن أوجب واجباتنا التوحُّد وليس التفرُّق ، الائتلاف وليس الاختلاف ، التعاون وليس الصراع والنزاع ، وإذا لم نفعل ذلك فإننا سنكون جديرين بالفناء .

ارجعوا أيها السادة إلى أكثر جوانب تاريخنا الحضارى والثقافى ؛ ستجدوا صوراً لا حصر لها تعد معبِّرة عن الديمقراطية ليس فى مجال السياسة فحسب ، بل فى مجالات ثقافية وحضارية لا حصر لها ، وإلا كيف نفسر وجود مئات الأفكار الجريئة والحية والتى انتشرت فى عصر من العصور كالعصر العباسى . هل يمكن لهذه الأفكار أن تنتشر إلا إذا كانت البيئة ممهدة لها ومساعدة على انتشارها ؟ وهل استفدنا حقيقة من فتاوى الشيخ محمد عبده ؟

وإذا كانت شخصية الإنسان أى إنسان إنما تكوِّنها بالدرجة الأولى البذور والجذور الداخلية ، فهل من المعقول أن نتصور وجود نفس الإنسان فى حالة ارتمائه فى أحضان أفكار وآراء ليست نابعة من داخله أو من تاريخه الحضارى . إنه سيكون كمن يفقد الذاكرة . سيكون بلا تاريخ والعياذ بالله .

ونود أن نؤكد من جانبنا على أن فكرة التنوير فى مجال الثقافة السياسية تعد من أبرز الأفكار ، خاصة إذا ركزنا على الثقافة السياسية فى عالمنا العربى من منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حتى الآن .

فإذا كنا نقول إن الإنسان يعد حيواناً سياسياً فى المقام الأول ، فإن هذا يعنى أن العديد من الجوانب والمجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية إنما تتبلور حول هذه الدائرة السياسية بوجه عام ، أى : المحور السياسى . وإذا لم يكن الشيخ محمد عبده قد اهتمَّ بالسياسة العملية ، إلا أننا نجد لديه العديد من الأفكار فى المجال النظرى والفكرى بالنسبة للحرية .

إن فكرة التنوير تدخل فى إطارها دراسة العديد من القضايا والمشكلات التى تدور حول طبيعة العلاقة بين الدين والدولة ، وهل يوجد ما يسمى بالإسلام السياسى ؟وهل نخلط بين الدين والدولة ؟

ومن القضايا والمشكلات الأخرى علاقة العرب بالدول الغربية بوجه عام وأمريكا بوجه خاص ، وهل يمكن تحقيق العلمانية ؟ وهل يوجد ما يسمى بالغزو الفكرى فى جانبه السياسى على وجه الخصوص ؟ وما موقفنا من مشكلة

الأصالة والمعاصرة ، أى : القديم والجديد ، أى : العناصر التراثية والعناصر الغربية ، وخاصة فى المجال السياسى والفكرى ؟

وفكرة التنوير ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث التى نراها الآن ، ومن بينها محاولة ضرب الوحدة الوطنية والتطرف والإرهاب ، إذ أن هذه المجالات كلها يمكن بحثها ودراستها من خلال فكرة التنوير من منظورها السياسى . ويقينى أن بعض أفكار الشيخ محمد عبده ستساعدنا على إيجاد حلول لهذه المشكلات . وهل يوجد ما يسمى بغزو ثقافى فعلاً أم أن هذا يعد وهماً وليس حقيقة ؟ وكيف يمكن بناء الإنسان العربى على ضوء فكرة التنوير ؟

العلاقة وثيقة- إذن - بين الفكر التنويرى والسياسة ، فالإنسان - كما قلنا- حيوان سياسى عند بعض الفلاسفة ، ونجد هذه العلاقة طوال تاريخ الفلسفة من الماضى السحيق حتى الآن . نجد هذا فى العديد من محاورات أفلاطون وخاصة محاورة الجمهورية ومحاورة القوانين . وأيضاً فى كتاب «السياسة» لأرسطو، فالسياسة عنده تعد داخلة فى القسم العملى من الفلسفة . ونجد هذه العلاقة عند العديد من مفكرى العرب ، من بينهم إخوان الصفا ، وكانت لهم نزعتهم الشيعية ، كما نجدها عند الفارابى فى آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعند ابن سينا أيضاً ، كما نجدها عند ابن باجة فى محاولة تصوُّر مدينة فاضلة ، وعند ابن رشد فى فكره السياسى . ونجد ذلك أيضاً فى فكر الخوارج وفكر الشيعة ، بل توجد جوانب سياسية عند العديد من الصوفية ، والذين عبروا عن التصوف الفلسفى . نجد ذلك أيضاً فى العصر الحديث عند أمثال: « توماس هوبز » و«جون لوك » و « فولتير» و « برتراند رسل »... إلى آخر هذه الأمثلة التى إن دلتنا على شىء فإنما تدلنا على أن المفكر عادةً لا يستطيع التغافل عن دراسة الأبعاد السياسية ، لأنه يعد كائناً اجتماعياً لابد أن يتأثر بظروف مجتمعه الذى يعيش فيه، ثم يحاول إيجاد صياغة جديدة للمجتمعات فى مستقبل الزمان .

ونود أن نشير إلى أن الحرية لها صورها العديدة ، ومن بينها الحرية السياسية ،

والحرية الاقتصادية ، والحرية الاجتماعية ، والحرية الفكرية ... إلى آخر تلك الصور والنماذج للحرية .

نقول هذا ونؤكد على القول به ، لأننا نعتقد أن ما يضاد الحرية إنما هو الإرهاب . وغنيٌّ عن القول أنه توجد أسباب كثيرة لظهور الإرهاب ، فقد نجد أسباباً سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية لظهور الإرهاب ، بل قد نجد مجموعة من الفرق الإسلامية القديمة لأفكارها صلة بالإرهاب من قريب أو من بعيد .

والمشكلة أن الإرهاب يعتمد الآن في تمويله على أفراد تارة ، وعلى بنوك مشبوهة المصدر تارة أخرى ، ولايمكن للإرهاب أن يستمر إلا بوجود تمويلات ضخمة لانتشاره ، وقد نجد أسباباً سياسية كما قلت لانتشاره ، كالحكم الديكتاتوري، وأسباباً اقتصادية كالتفاوت الضخم في توزيع الثروات والدخول وانتشار البطالة . ومن هنا نجد الشيخ محمد عبده قد دخل في صراع مع بعض الأفراد من رجال الحكم ، ومع بعض المؤسسات أيضاً .

أما التساؤل عن مدى علاقة الإرهاب بالدين ، فإنني أقول بكل أمانة إن الدين لا علاقة له بالإرهاب ، بل السبب هو الفهم الخاطئ للدين من جانب أناس فقدوا القدرة على الفهم الصحيح للآيات القرآنية الكريمة . وإذا وجدنا أناساً يقولون بأفكار إرهابية ويتمسَّحون بالدين ، فإن سبب ذلك أنهم يريدون إقناع الناس بشرعية ما يقولون . وهذا يعد ضلالاً كبيراً من جانبهم .

وإذا فهم كل فرد قواعد دينه فهماً سليماً كما أكد على ذلك الشيخ محمد عبده؛ فلن نجد علاقة بين الإرهاب والدين .

إن فكرة الحرية وارتباطها بالتنوير،ليست نبتاً شيطانياً لاأساس له ولاجذور، بل إن لها جذورها الثقافية الفكرية ، وأبعادها الفلسفية كما أشار الشيخ محمد عبده . وليتنا نضع ذلك في اعتبارنا ، بحيث نبدأ بالجذور التاريخية من التأمل

والاستفادة من دروس الماضى ، وسواء كان الماضى يمثل الخير أم أنه يعد تعبيراً فى بعض جوانبه عن الشر . ولتكن ثقافة الحرية والتنوير مشروعاً حضارياً لنا نحن أبناء الأمة العربية ، بل إن ثقافة الحرية يمكن أن تكون ركيزة رئيسية ومنهجاً واضح المعالم فى دروسنا بالتعليم العام والتعليم الجامعى. هذا بالإضافة إلى ما تصدره مطابعنا من كتب ثقافية، وفى كل وسائل إعلامنا.

ولنتأمل القيم التى نستطيع الاستفادة منها من وراء غرس ثقافة الحرية والتنوير فى النفوس والعقول والوجدان . إنها تعنى انتصار الخير على الشر ، بمعنى أننا إذا لم نتسلح بثقافة النور والتنوير فإن مصيرنا إلى ضياع . إنها تعنى نشر النور حتى ينحسر الظلام ، تماماً كما يكون الشروق مؤذنا ببداية يوم جديد. إنها تعنى إحياء روح الوطن والمواطنة وما أكثر قيم الوطن والمواطنة . إنها تعنى التمسك بتراب الأرض التى تعد ملكاً للجميع ، وكل ما يعد نبتاً جميلاً مبدعاً . إنها تعنى الانتماء ، بحيث يكون الويل كل الويل لمن لم يشعر بانتمائه إلى وطنه الذى يعد الحماية والأمان . إنها تعنى التمسك بالثابت والأصيل والحقيقى ، مقابل الزائل والمتغير والزائف .

إن نشر ثقافة الحرية يعد معبِّراً عن كل ما هو مشرِّف ووضَّاء ، معبِّراً عن السمو والاعتزاز بالنفس والدفاع عن الكرامة ، الكرامة التى تميز فرداً عن فرد، بحيث لا ننتظر من إنسان يضحى بكرامته ، عمل أى شىء نافع له ولوطنه ومجتمعه .

نقول ونكرر القول بأن بداية الطريق نحو ثقافة الحرية إنما يتمثل فى البحث عن الأسس والجذور ، جذور ثقافة النور ، الجذور التى تستند إلى أبعاد كثيرة من بينها الأبعاد الجغرافية والتاريخية والثقافية والفكرية والفلسفية ، وذلك حتى تكون ثقافة حقيقية جادة وليست ثقافة هامشية هلامية .

ثقافة النور والحرية إذا كان لها أُسسها وأبعادها المنطقية ، فإنها تكون معبِّرة عن المعقول ، ولن تكون معبِّرة عن اللامعقول إلا إذا استندت إلى إلغاء حق

الآخر . نقول هذا ونؤكد على القول به وذلك حتى نتعرف على أبعاد دور الشيخ الإمام فى معركة الحرية والتحرُّر .

كم نبهنا مفكرون كبار من أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى إلى خطر السلطة الدينية ؛ لأن هذا الخلط بين الدين والسياسة سيجعل ثقافتنا السياسية فى مجال الحرية تتراجع إلى الوراء، ستكون ثقافة محلية منعزلة عن التيارات العالمية ، ولا نستطيع أن نتعامل على أساسها مع دول العالم المتحضر . وكم تم تزوير العديد من الآراء السياسية عن طريق الفهم الخاطئ للدين .. وكم تم تكفير مفكرين كبار من منطلق دينى خاطئ فى أساسه وجوهره .

ونستطيع أن نتصور نظاماً سياسياً عربياً جديداً إذا لم نأخذ من تراثنا إلا ما يؤدى إلى نهضتنا ، بحيث لا يكون معوِّقاً لمسيرتنا الإنسانية ، وهذا ما حاوله الشيخ محمد عبده ، نستطيع أن نسعى إلى الحرية إذا اعتقدنا أن النزعة الإنسانية التنويرية هى التى يجب أن تكون سائدة فى مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا وكتابات مفكرينا . وكم ارتبط النور بالتقدم والسير إلى الأمام ، وارتبط الظلام بالتأخر والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية .

ولن يصبح لنا دورنا الحيوى النشيط والرائد فى العالم الذى نعيش فيه إلا إذا التزمنا بالإيمان بالحرية فى مجتمعنا العربى ، وقلنا بأن المثقف السياسى وهو الكائن الاجتماعى ، لابد أن تكون له أفكاره المؤدية إلى سعادة وتقدُّم مجتمعه ، ولن يؤدى إلى تحقيق تقدُّم مجتمعنا العربى إلا بأن تكون الحرية هى الرائد ، وطريقنا هو طريق التحرُّر ، وخصائص ثقافتنا تتمثل فى البعد الإنسانى أساساً. عن طريق هذا كله يمكن تحقيق نظام ثقافى عربى جديد ، نفاخر به بين دول العالم من مشرقها إلى مغربها ، بحيث نقول : هذه بضاعتنا الثقافية السياسية ، التى تتخطى حدود الزمان والمكان ، البضاعة السياسية فى مجال الحرية، وهى التى إذا كانت قد اتخذت بعض جذورها من الماضى إلا أنها لا تقف عنده بحيث يكون حالها كمن يبكى على الأطلال ، بل تركز على الحاضر وتنطلق منه إلى المستقبل .

نقول هذا ونحن نضع فى اعتبارنا ضرورة استبعاد الشعارات البراقة الزائفة التى يزعم أصحابها أنهم يقدِّمون لنا من خلالها مذاهب سياسية فى حين أن الواقع الموضوعى يكشف لنا أن تلك المذاهب فى وادٍ والفكر السياسى فى وادٍ آخر . إنها مذاهب لا تستند إلى أساس فكرى أيديولوجى ، ولا تقوم بنقد الواقع أو التعبير عنه تعبيراً صادقاً . ومن هنا كان فكرها فكراً سطحياً ، فكراً أجوف . انظروا إلى الفكر الأوربى السياسى على سبيل المثال وقارنوا بينه وبين ما نطلق عليه فكراً عربياً سياسياً على سبيل التجاوز ؛ ستجدوا الفرق الكبير بين الفكر الدقيق الذى يقوم على أرض صلبة وبين الفكر الهشّ المظلم ، ونقصد به الفكر العربى فى كثير من جوانبه وأبعاده ومجالاته .

إننا نفتعل الكثير من المعارك ونطلق عليها معارك فكرية ، فى الوقت الذى تدور حوله هذه المعارك على قضايا زائفة خيالية ، كما نتحدث عن الغول والعفريت . وأصبح من الأشياء الشائعة أن يتحدث كل واحد منا عن مشروع له حول الفكر العربى السياسى، ثم نجد هذا المشروع خيالاً فى خيال وليس له معالم محددة ، ولا يستند إلى أى نوع من أنواع الصدق .

ويقينى أنه لولا الهالات الإعلامية حول العديد من الكتب والمقالات لقلنا بصدق إننا لا نجد عندنا فكراً سياسياً فى مجال الحرية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، بل نجد بضاعتنا الفكرية بضاعة فاسدة لا صلة لها بالواقع ، تماماً كمن يبحث عن قطة سوداء فى الظلام ، أو مثل دون كيشوت الذى يحارب طواحين الهواء .

نجد هذا فى الاتجاهات السلفية والاتجاهات الصوفية ، تلك الاتجاهات التى تطلب منا الرجوع إلى الوراء والصعود إلى اهاوية ، وتتغنى بالتراث ، وكأنها تبكى على الأطلال ، إذ كيف نتغافل عن أقدس ما فى الإنسان وهو «الحرية »؟

إن الحرية تمثل التقدم، تمثل القوة الخلاَّقة المبدعة ، وهل يمكن الحديث عن

التنوير سواء فى أوربا أو فى عالمنا العربى المعاصر دون القول بالركيزة الكبرى والأساس القوىّ البنيان : «الحرية»؟

إن النزعة الإنسانية - تلك النزعة التى لا تسود إلا بفضل الحرية - لا يمكن تصوُّرها بعيدة عن قيم الحرية ، ولم نسمع عن سخرية من الحرية عند أمثال ديدرو ومونتسكيو وفولتير وجوته وجون لوك وبنتام وهيوم وبنيامين فرانكلين. لا نجد ابتعاداً عن الحرية عند رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده ولطفى السيد وطه حسين وحسين هيكل وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود .

أما الابتعاد عن الحرية بل والسخرية منها ، فإننا نجدها عند أصحاب الاتجاهات التى يطلق عليها أصحابها أنها اتجاهات سلفية تارة ، وأصولية تارة أخرى ، تلك الاتجاهات التى انتشرت للأسف الشديد فى عالمنا العربى المعاصر، وتمثل خير تمثيل ما نطلق عليه الصعود إلى الهاوية . وإن كان أكثرهم لايعلمون.

نعم إن هذه الاتجاهات تضرب بالحرية عرض الحائط وتركز جهدها على الإساءة إلى الحرية ، إلى التنوير كما ينبغى أن يكون ، فإذا أراد أصحاب هذه الاتجاهات إقامة بناء سياسى بمعزل عن الحرية فإننا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين.

إننى أعتقد اعتقاداً راسخاً أننا فى أمسِّ الحاجة إلى البحث فى قضية الحرية ، إننا فى عصر لا يمكننا أن نتصور فيه الفكر بمعزل عن الحرية ، كما أن البحث فى قضية الحرية والتحرُّر لن يؤدى بنا إلى مجموعة من التصورات والنتائج الفكرية الدقيقة إلا إذا نظرنا إليها من خلال واقعنا المعاصر ، نظرة تتخطى الطابع المحلى الضيِّق وتجاوز الحدود الجغرافية لبلد أو آخر من بلدان العالم العربى ، بحيث نقيم الجسور والقنوات المشتركة بين الثقافة العربية فى سائر بلداننا من مشرقها إلى مغربها وفى بلدان العالم كله . وإذا لم نفعل ذلك فسنظل فى مكاننا دون أدنى تقدُّم ، بل سنرجع إلى الوراء ونكون نحن أبناء الأمة العربية من أكثر أفراد العالم جهلاً وضياعاً وتخلفاً .

هذه نقطة أجد من واجبى التنبيه إليها والتركيز عليها لأنها ستساعدنا على تقديم تصوُّر لما أطلق عليه الرؤية المستقبلية للحرية والتحرُّر .

إننا الآن فى عصر تتصارع فيه القوى المختلفة ، وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا السياسية العربية ، ونبادر أيضاً باتخاذ المواقف الصائبة ، فلن يكون لنا وجود فى المستقبل ، لن تكون لنا حياة كما ينبغى أن تكون الحياة ، سنصبح فى خبر كان إن صح هذا التعبير ، وسيأتى يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب أصبحت منقرضة وزالت عن الوجود .

وغير خافٍ علينا أننا الآن فى حالة من فقدان الوعى ، فقدان الاتزان ، أو مرحلة انعدام الوزن . إننا الآن فى حالة غريبة من الغيبوبة والعالم يتحرك من حولنا حركة سريعة ، حركة بغير حدود ، إننا فى الوقت الذى نصعد فيه إلى الهاوية ، ويكون الحوار بيننا حول الحرية أقرب إلى إثارة الخلافات اللفظية الشكلية ، بل أقرب إلى ثرثرة النساء ، نجد الدول المتقدمة ، وخاصة الدول الأوربية تبادر إلى اتخاذ المواقف البناءة ، المواقف التى تعبِّر عن نتائج عملية . ورغم اتفاقنا أو اختلافنا مع تلك المواقف التى تصدر عن الدول الغربية المتقدمة إلا أننا يجب أن نتعلم منهم القدرة على اتخاذ المواقف ، ولن يكون ذلك بإمكاننا إلا إذا أقمنا الجسور - كما قلت - بين أبناء الدول العربية كلها ، وأقمنا الحوار الفكرى بين مثقفى الأمة العربية حول الحرية ، ومثقفى بقية بلدان العالم من مشرق الأرض إلى مغربها .

ويبدو لنا أن عالمنا العربى كانت مسيرته الفكرية التنويرية أكثر وضوحاً منذ قرن من الزمان ، أكثر وضوحاً وجِدِّية مما نراه الآن . وإلا كيف نبرر ليس ظهور الشيخ محمد عبده وأمثاله فى مصر فحسب ، بل نجده عند عبد الرحمن الكواكبى فى سوريا ، الذى توفى عام ١٩٠٢م أى أنهما كانا متعاصرين.

فإذا كنا نجد عند عبد الرحمن الكواكبى رؤية تدور حول استلهام التراث فى نقد الاستبداد ، فإننا نجد عند الشيخ محمد عبده - وكما سبق أن أشرنا - تركيزاً

على فكرة الحرية من خلال نقد السلطة الدينية . وسيجد القارئ لكتابنا هذا أكثر من إشارة إلى عبد الرحمن الكواكبى ..

لقد اهتم عبد الرحمن الكواكبى بالفكر السياسى كثيراً . إننا نجده - من خلال كتاباته التى تركها لنا - قد اهتم بكثير من القضايا ، ومن بين القضايا التى اهتم بها «القضايا السياسية» وذلك من خلال ربطها بقضايا أخرى ترتبط بها من قريب أو من بعيد .

نجد هذا فى الكتابين اللذين تركهما لنا وهما كتابه « أم القرى » و « طبائع الاستبداد ».

لقد اهتم الكواكبى وخاصة فى كتابه «طبائع الاستبداد » بتعريف الاستبداد وبيان علاقة الاستبداد بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية [1]، كما بيَّن لنا كيفية التخلص من الاستبداد . إنه يعقد فصلاً لبيان الصلة بين الاستبداد وجانب من تلك الجوانب ثم ينتقل فى فصل آخر لكى يبين لنا صلة الاستبداد بجانب آخر ، وهكذا حتى يكشف عن علاقة الاستبداد بكل تلك الجوانب التى أشرنا إليها منذ قليل ، وذلك فى مجموعة من الفصول يرتبط كل فصل منها بالآخر . كل ذلك بلغة واضحة سهلة محددة .

يمكن القول بأن كتاب « طبائع الاستبداد » وأيضاً كتاب « أم القرى » كانا فى الأصل مجموعة من المقالات التى نشرت فى كثير من المجلات وأيضاً الجرائد اليومية .

وإذا تساءلنا عن الفرق بين هدف المؤلف من تأليفه للكتاب الأول «طبائع الاستبداد» وهدفه من تأليفه لكتاب « أم القرى » فإنه يمكن القول بأن الهدف كان منصبًّا أساساً فى كتابه « طبائع الاستبداد » على نقد الحكومات الإسلامية ، أما بالنسبة للكتاب الثانى « أم القرى » فإن الهدف تبلور حول نقد الشعوب الإسلامية.

---

(١) الفصول من الثانى حتى السابع .

فالهدف من الكتاب الأول كان مختلفاً - إذن - عن الهدف من الكتاب الثانى، وإن كان يجمع الكتابين إلى حد كبير وحدة موضوعية تتمثل فى سعى الكواكبى لتحديد مواطن الداء وسعيه أيضاً لتحديد أوجه العلاج . إنه لم يكن مجرد ناقد لأحوال الحكومات والشعوب الإسلامية ، بل أضاف إلى البعد النقدى بعداً موضوعياً يتمثل فى أنه حدَّد أوجه الإصلاح ، أى : طرق العلاج ، تماماً كما نجد هذا المنهج فى بعض صوره عند مفكرنا الشيخ محمد عبده .

لقد اهتم الكواكبى اهتماماً كبيراً بالبحث فى الاستبداد ، إنه فى مقدمة كتابه «طبائع الاستبداد» يبين لنا أن المتكلم فى الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص ما هو الاستبداد وما سببه وما أعراضه وما سيره وما إنذاره وما دواؤه ولماذا يكون المستبد شديد الخوف ، وبماذا ينبغى استبدال الاستبداد.. وهكذا إلى آخر الأسئلة التى يثيرها الكواكبى فى مقدمة كتابه[1] .

لقد كان الكواكبى حريصاً على أن يبين للرعية حقوقهم ، حريصاً على أن يبين واجبات الحاكم إزاء الرعية ، إنهم لابد أن يكونوا فى خدمة الرعية ، ويسهرون على رعاية مصالحهم .

ولا ينسى الكواكبى فى معرض حديثه عن الاستبداد وبيان أنواعه أن يبين لنا أن من أسوأ أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، كما يلاحظ أن المستبدين يتولاهم مستبد ، والأحرار يتولاهم الأحرار .

نجد الكواكبى بعد هذا يبحث فى الصلة بين الاستبداد والدين ، ونبادر فنقول إن الكواكبى كان حريصاً على أن يبين لنا أن الاستبداد لا يجىء من الدين، بل من سوء فهم واستغلال من جانب البعض للدين. ولاشك أن هذا الرأى من الكواكبى يتضمن رؤية تنويرية ، وهذه الفكرة نجدها أيضاً عند الشيخ الإمام محمد عبده .

لقد بين لنا الكواكبى أن الدين الإسلامى قد جاء مؤسَّساً على الحكمة

(١) طبائع الاستبداد: ص ١٢ - ١٧ .

والعزم ، هادماً لكل صور الشرك ومحكِّماً لقواعد الحرية السياسية التى تتوسط بين الديمقراطية والأرستقراطية . لقد نزع كل سلطة دينية أو تغليبية تتحكم فى النفوس أو فى الأجسام ، ووضع شريعة حكم إجمالية صالحة لكل زمان ومكان. وفهم الخلفاء الراشدون معنى ومغزى القرآن الكريم النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه إماماً فأنشأوا حكومة قضت بالتساوى حتى بين أنفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم الحياة وشظفها ، وأحدثوا فى المسلمين عواطف أخوَّة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفى حضانة أم واحدة ، لكل منهم وظيفة شخصية ووظيفة عائلية ووظيفة قومية .

إن هذا الطراز السامى من الرياسة - فيما يرى الكواكبى - هو الطراز التنويرى المحمدى، لم يخلفه فيه حقاً غير أبى بكر وعمر ، ثم أخذ يتناقص ، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى اليوم ، وسيدوم بكاؤهم إلى يوم الدين إذا لم نتنبه إلى استعواضه بطراز سياسى شورى ، ذلك الطراز الذى اهتدت إليه بعض أمم الغرب ، تلك الأمم التى ربما يصح أن نقول عنها إنها قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفاد المسلمون . وهذه الفكرة نجدها أيضاً عند الشيخ محمد عبده .

معنى هذا أن الكواكبى ينقد الأحوال التى وصلت إليها الشعوب الإسلامية والعربية فى عصره ، ويبين لهم كيفية الإصلاح . والواقع أننا نجد أكثر المجدِّدين والمصلحين الاجتماعيين السياسيين يلتقون إلى حد كبير عند تلك النقطة . يلتقون عند الكشف عن الأحوال السيئة التى وصلت إليها شعوبهم، ثم يأخذون بعد ذلك فى تحديد وسائل تلافى تلك الأحوال وبيان أوجه العلاج .

لا مجال إذن - فيما يرى الكواكبى - لرمى الدين الإسلامى بتأييد الاستبداد. إننا نجد الكثير من الآيات القرآنية التى فيها دعوة إلى الشورى .

نجد الكواكبى بعد ذلك يحاول الكشف عن مسلك بعض الفقهاء الذين

يفسرون هذه الآيات تفسيراً خاطئاً ، وذلك لأنهم يسعون إلى مصلحتهم الشخصية .

كما ينقد الكواكبى فى الفصل الذى عقده بعنوان « الاستبداد والدين »[1] مسلك بعض رجال الصوفية. والواقع أننا نجد المجدِّدين والمصلحين السياسيين لا يتعاطفون مع التصوف بصفة عامة . نجد هذا عند محمد عبده رغم أنه عاش فترةً حياة التصوف ، ونجده أيضاً عند محمد إقبال .

ويبين لنا الكواكبى كمفكر ثورى مسلم أهمية الشورى والديمقراطية فى الإسلام . ويمكن القول من جانبنا إن الكواكبى وغيره من المفكرين الذين يحملون الدعوة إلى التجديد ، إنما كانوا يدعون إلى ما نسميه بالثورة الداخلية لا الثورة الخارجية . ونعنى بذلك أن الكواكبى كان حريصاً على أن يبين لنا أن ما نجده من استبداد فى الأمم الإسلامية فى عصره لا يرجع إلى الإسلام ، بل يرجع إلى سوء فهم للإسلام ، كما يرجع إلى الابتعاد عن أحكامه . فالعيب - إذن - ليس فى الدين ولكن فى التفسيرات الخاطئة من جانب البعض لهذا الدين وأحكامه . وهذه الفكرة نجد أكثر أبعادها عند الشيخ محمد عبده .

ويلاحظ أن الكواكبى يركز باستمرار على البعد الاجتماعى ، وذلك حين يشرح معانى الآيات القرآنية ، ولقد كان هذا متوقعاً من جانبه ، فهو كمصلح مجدِّد يهتم أساساً بالابتعاد عن التفسيرات اللفظية التى يقوم بها البعض، متجاوزين بذلك عن القيم السلوكية الخلَّاقة المبدعة . وهذا أيضاً نجده فى تفسير الشيخ محمد عبده لبعض الآيات والسور القرآنية الكريمة .

وهذا إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على أن الكواكبى فى فكره السياسى كان حريصاً على الكشف عن سوء الأحوال فى البلاد الإسلامية ، وذلك بالتفرقة بين مجدها قديماً وتحلُّلها بعد ذلك .

---

(١) الفصل الثانى : ص ٢٧ وما يليها .

إنه يكشف عن الداء ثم سرعان ما يكشف لنا عن أوجه وسبل العلاج. إنه يحاول تخطيط برنامج عملى لتفادى الضعف فى الأمم الإسلامية والعربية ، بحيث تمضى شعوب الإسلام قدماً نحو التقدُّم والرقى ، وذلك على هدى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ. ولابد لنا من الإشارة إلى أن دعوة الكواكبى إلى الإصلاح لا تقتصر على دولة دون أخرى من الدول الإسلامية والعربية ، بل إنه يدعو إلى إصلاح الأمة العربية بأسرها . وهذا أيضاً ما حاوله الشيخ محمد عبده .

ولو رجعنا إلى كتاب « أم القرى » فإننا نجده يتخيل انعقاد مؤتمر بمكة المكرمة من مندوبين يمثلون أقطار العالم الإسلامى وقد أخذوا يبحثون فى أحوال هذا العالم الإسلامى ويكشفون عن الأسباب التى أدت إلى تدهوره ، كما يقدمون الأسباب الكفيلة بعلاج هذا التدهور . لقد لخص سكرتير هذا المؤتمر - وهو الكواكبى مؤلف كتاب « أم القرى » - ما دار بين المندوبين الذين يمثلون العالم الإسلامى .

لقد كشف الكواكبى عن كثير من الأسباب التى أدت إلى فتور وتدهور أحوال شعوب العالم الإسلامى ، ومن هذه الأسباب الاعتقاد بالجبر ، أى: بالعقيدة الجبرية وما تؤدى إليه هذه العقيدة من الإيمان بالتواكل والابتعاد عن طريق العمل ، طريق الكفاح ، أى : خوض غمار الحياة ، يضاف إلى ذلك انتشار البدع والخرافات التى لا تستند إلى العقل ولا إلى الفكر . وهذه الفكرة نجد مثيلاً لها عند الإمام محمد عبده .

وإذا كنا قد وقفنا وقفة طويلة عند الكواكبى ، فإن سبب ذلك أننا نجد تشابهاً بين أفكاره وأفكار الشيخ محمد عبده من جهة ، ونجد أيضاً اختلافاً بينهما ليس فى طبيعة أفكار كل منهما ، بل فى الحياة العملية الإصلاحية والتى كانت أكثر بروزاً عند الشيخ محمد عبده .

لقد سعى الشيخ محمد عبده إلى التأكيد على فكرة الحرية ، وربط بينها وبين

الأبعاد العملية الإصلاحية فى مجال تجديد الفكر الدينى ، بحيث يحاول بعث الأمة العربية بعثاً جديداً . ونود أن نشير تأكيداً لما سبق أن أشرنا إليه فى أكثر من موضع إلى أن الحديث عن الحرية والتحرُّر سيظل حديثاً ممتداً ما بقيت الحياة على وجه الأرض ، وأن الحديث عن الحرية والتحرُّر ليس مجرد مقولة نظرية ، بل إنه حديث ينتمى إلى أعمق أعماق الحياة والوجود والمصير ، إنه يغوص فى باطن أرض العقل والوجدان ، بطن أرض التجربة .

نقول هذا من جانبنا، ولا مفر من القول به ، لأن تجارب الأمم طوال تاريخها قد أثبتت أن المقولات النظرية والفكر المجرد فى مجال الحرية والتحرُّر لن يُقدَّر له البقاء إلا إذا استند إلى أرض الواقع . وراجعوا ما شئتم من الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كل دول العالم من فجر التاريخ وحتى الآن ؛ ستجدوا أن الفكر الذى يستند إلى الواقع ويحاول التقدم به نحو صورة أفضل، يعد أفضل بكثير من الفكر الهلامى، الفكر الذى يكون فى وادٍ وحقائق الحياة والظروف فى وادٍ آخر، ومن هنا وجدت اختلافات عديدة فى تصورات الحرية والتحرُّر، وليس بمجرد الانتقال من زمان إلى زمان ، بل أيضاً باختلاف البلدان. إن الحرية لا تُفرض بقرار ، بل إنها تعد نوعاً من المعايشة والتلاؤم مع الواقع أولاً ، ثم تطوير هذا الواقع . ومن هنا لا تكون الحرية مجرد تبرير أو تفسير للواقع، بل هى تغيير للواقع . وهذا التغيير لا يكون بطبيعة الحال إلا بعد دراسة جذور الواقع ، ليس واقع الأمة العربية فحسب ، بل الأمة العربية فى علاقاتها بكل دول العالم شرقاً وغرباً .

ولابد من الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى كما قلت، وكما بين لنا الشيخ محمد عبده ، بحيث لا يكون دورنا فى مجال الحرية كدورنا المؤسف فى مجالات أخرى اقتصرنا فيها على مجرد الشجب والاستنكار ، بحيث أصبحت بضاعتنا كلاماً فى كلام . نعم سنصبح مجرد ظاهرة صوتية كلامية وذلك إذا سرنا - كما أشار إلى ذلك زكى نجيب محمود - فى مجال «الكلامولوجيا» وباعدنا بيننا وبين «التكنولوجيا» .

نعم سرنا فى مجال «الكلامولوجيا» حين اقتصر دورنا على مجرد الرفض وإعلان الحرب على الثقافة الأوربية والديمقراطية الأوربية والعولمة الثقافية ... إلى آخر صور الرفض للعديد من المجالات التى نعتبرها نحن معبرة عن الخير لأمتنا العربية ، كل الخير .

وقد تضمَّن هذا الكتاب مجموعة من الفصول ، تدرس حياة محمد عبده الفكرية ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم ، وبعض آرائه فى مجال علم الكلام والفلسفة ، وبيان أثره فى العديد من المفكرين ، سواء كانوا عرباً أو كانوا من بلدان غير عربية ، بالإضافة إلى بعض البلدان الأوربية .

لقد ركزنا على بيان أن الشيخ محمد عبده قد جمع بين الأبعاد النظرية والمجالات العملية الإصلاحية والاجتماعية .

ومن المعروف أن حياة الشيخ محمد عبده كانت- كما أشرنا أكثر من مرة - غاية فى الثراء الفكرى والنشاط الثقافى والاجتماعى . نجد هذا كله واضحاً غاية الوضوح طوال السنوات التى عاشها سواء فى مصر أو فى فرنسا حين عمل مع جمال الدين الأفغانى على تأسيس الصحيفة الأسبوعية المعروفة باسم «العروة الوثقى» والتى كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين، بالإضافة إلى محاربة التسلط والظلم والطغيان ، والدعوة إلى التخلص من الاحتلال الإنجليزى . وكانت هذه الصحيفة أول صحيفة عربية تظهر فى أوربا. لقد كان شيخنا يعمل دون ملل أو كلل ، وكانت له رؤيته النقدية وآراؤه الإصلاحية الجريئة .

نجد هذا واضحاً غاية الوضوح فى العديد من الكتب والرسائل التى تركها لنا محمد عبده ، ومن بينها مقالاته فى «العروة الوثقى» ، وحاشيته على شرح الدوانى لكتاب «العقائد العضدية» للإيجى، و «رسالة التوحيد» ، وتقرير فى إصلاح المحاكم الشرعية ، و « الإسلام والرد على منتقديه » ، و « الإسلام

والنصرانية مع العلم والمدنية » ، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر ، وكتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » ، وتفسيره لسورة الفاتحة ، وتفسيره لجزء عم ، وتفسير المنار - الذى أكمله رشيد رضا - ودروس دارالإفتاء.

لهذا كله لم يكن غريباً أن يهتم العديد من المفكرين والمؤلفين سواء كانوا من العرب أو الأوربيين بالكتابة عن مفكرنا الكبير الشيخ الإمام محمد عبده ودراسة أفكاره ، ومن بين من اهتموا بالكتابة عنه ودراسة أفكاره : رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق وعثمان أمين وأحمد لطفى السيد وعباس محمود العقاد ومحمد بخيت المطيعى ومنصور فهمى وحافظ إبراهيم وأحمد أمين ومحمد مصطفى المراغى وماكس هورتن وشارل آدمز وشاخت وجولد تسيهر وجوميه . وقد حاولنا فى الفصل الأخير من كتابنا هذا حصر أكثر هؤلاء .

لقد خاض محمد عبده الكثير من المعارك الفكرية، وكان له من الأعداء مثل ما له من الأصدقاء ، وكان هذا شيئاً مألوفاً متوقعاً إذ أننا فى كل عصر وكل مكان إذا كنا نجد دعاة للنور ، فإننا نجد أيضاً خفافيش الفكر الذين يُؤثرون الظلام ولا تقوى أبصارهم على مواجهة النور والضياء . وإذا كنا نجد دعاة للإصلاح والتجديد والتقدم إلى الأمام ، فإننا نجد أيضاً دعاة الجمود والانغلاق والرجعية والصعود إلى الهاوية . وإذا كنا نجد أناساً من المفكرين فى هذا العصر أو ذاك يطلبون منا التمسُّك بالعقل وجعله المرشد والدليل فى حياتنا والاعتصام بالعمل ، فإننا نجد بجوارهم أهل الخرافة والأسطورة والشعوذة واللاعقلانية .

كانت حياة محمد عبده غاية فى النشاط ، حيث كان كثير الانتقال من بلد إلى آخر من البلدان العربية والبلدان الأوربية ، كان لا يكل ولا يمل ، ينشر النور والضياء فى كل مكان عن طريق دروسه ومقابلاته والمناصب التى تولاَّها. صحيح أننا قد نختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها ، لكن هذا الاختلاف - كما سبق أن أشرنا - هو من طبيعة التفلسف . ويكفى أن تكون

إيجابيات الرجل أكثر بكثير من سلبياته . ويكفى أنه كان باحثاً عن الحقيقة فى كل مكان طوال الفترة التى عاشها .

وإذا كان محمد عبده قد ولد بمصر (فى عام ١٨٤٩م) إلا أنه ملأ بقاع الأرض علماً ومعرفة ، سواء فى أثناء حياته ، أو بعد مماته على سبيل الخصوص.

وكان يوم وفاته حداداً عامًّا فى كل البلدان الإسلامية ، والتى أدركت مكانة الرجل علماً وخُلقاً .

لقد دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، وأدرك أن المشكلة ليست فى الدين ، بل فى الفهم الخاطئ للدين . نجد هذا حين نبَّهنا إلى أهمية تأويل النص الدينى ، وربط مبادئ الدين بقضايا العصر والحضارة . كان - إذن - مجدِّداً ولم يكن مقلِّداً متزمتاً . وكان صاحب نزعة تنويرية ، ولم يكن من دعاة الظلام والإرهاب الفكرى .

أدرك بثاقب نظره أنه من الضرورى والحيوى والجوهرى فهم الدين فهماً صحيحاً ، وذلك حتى نتقدم للأمام ، وكأنه كان يدرك أن ذلك إنما يعد معبراً عن سُنَّة الله فى خلقه . لقد خلق الله عيوننا فى مقدمة رؤوسنا ، ولم يخلقها فى مؤخرة رؤوسنا . والله - كما يقول ابن سينا فى مناجاته - فالق ظلمة العدم بنور الوجود . إن هذا إنْ دلَّنا على شىء فإنما يدلنا على ارتباط الوجود بالنور وارتباط الحياة بالضياء ، وفى نفس الوقت ارتباط العدم والفناء بالظلام . فإذا أردنا لأنفسنا الوجود ، فلا مفر من السعى بكل قوتنا نحو النور والضياء والتنوير . أما إذا أردنا لأنفسنا الفناء والعدم والهلاك فإننا سوف لا نسعى إلا إلى الظلام. فمرحباً - إذن - بالنور ، ولعنة الله على الظلام ودعاة الظلام .

كان محمد عبده خلال حياته - والتى كانت قصيرة نسبياً - حريصاً على أن يقدم لنا المثل والقدوة والريادة . نشاطه الصحفى كان يدعو إلى الإعجاب . مؤلفاته نجد فيها مئات الأفكار البالغة الأهمية . الحكم والأمثال التى قالها تعبر

عن نظرة نقدية متعمقة ، وتعبِّر عن روح تأملية رقيقة . لم يكن من خلال الوظائف التى تولاَّها مجرد مقلد للآخرين ، بل كان ساعياً نحو التجديد ، وتحويل الأرض الخراب إلى حديقة مثمرة . صحيح أن الرجل لا يعد فيلسوفاً بأى حال من الأحوال ، ولكن هل وجدنا فى عالمنا العربى منذ ثمانية قرون فيلسوفاً ؟ كلاَّ ثم كلاَّ . لقد انقطع وجود الفلاسفة منذ العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م أى : منذ وفاة العملاق عميد الفلسفة العقلانية فى بلداننا العربية، ابن رشد ، فالشيخ محمد عبده يعد مفكراً ترك بصماته الواضحة والبارزة على مسار فكرنا العربى المعاصر ، ومن يحاول إنكار ذلك فوقته ضائع عبثاً .

صحيح أن الرجل لم يدافع عن الفكر الغربى الأوربى بمثل ما نجده عند مفكرين كبار آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم ، ومن بينهم : أحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وزكى نجيب محمود . ولكن للشيخ محمد عبده العديد من الإيجابيات - كما قلنا - ويكفى أنه لم يقف عند سكون وظلام التقليد والنظر إلى أسفل ، بل آثر لنفسه وللأمة العربية حركة وحيوية النور والتنوير، ونظر إلى أعلى ، مثله فى ذلك مثل المجدِّد الذى يصعد إلى أعلى الشجرة ليلتقط ثمارها ، بحيث لا يلتقطها من أسفل الشجرة حتى لا يكون عالة على جهد الآخرين .

لقد قال محمد عبده بالعديد من الأفكار لكى تبقى وتظل بيننا على امتداد العصور والزمان ، ولم يقل ما قاله لكى يوضع فى زوايا النسيان والإهمال . ألا يكفيه فخراً الجرأة التى تميَّز بها ؟والمعارك التى خاضها ؟ ألا يكفيه فخراً أنه كان مدركاً للدور الحقيقى للمثقف ؟ وكيف أن المثقف لا يكون مقتصراً على الدرس الأكاديمى، بل لابد من أن يضيف إلى ذلك اهتماماً بالمشكلات الاجتماعية والفكرية التى تهم بلده من جهة ، وسائر البلدان من جهة أخرى .

تميَّز الشيخ محمد عبده بالحس النقدى ، ولم يكن مجرد عارض لأفكار من سبقوه ، كعارض الأزياء ، بل كان يلجأ إلى التحليل والمقارنة والموازنة تعبيراً عن إيمانه بالنقد ودوره الخلاَّق فى صياغة وتشكيل العقل والوجدان . نجد هذا

فى أكثر الكتب والرسائل التى تركها لنا ، والتى كان أكثرها فى زمانه يعد فتحاً جديداً وطريقة للتقدم إلى الأمام وما يرتبط بالتقدم إلى الأمام من التمسُّك بالقوة والاعتزاز بطريق العقل الذى خلقه الله فينا . هذه سُنَّة الله فى خلقه ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً .

وقد أشرنا فى فصل من فصول هذا الكتاب إلى أن الشيخ محمد عبده قد ضاق بمناهج التعليم الأزهرية التى كانت سائدة فى عصره فى المدارس الأزهرية وجامع الأزهر ، وكان باستمرار توَّاقاً إلى إصلاح تلك المناهج حتى يصبح الحال غير الحال ، حتى يكون الأثر فى النفوس وفى العقول أيضاً مختلفاً جذرياً عن المناهج التى يصفها بالعقم ، والتى كانت موجودة فى عصره وقت أن التحق بالتعليم الأزهرى .

وقد حاولنا فى هذا الكتاب القيام بتأصيل لأفكاره ، بمعنى أننا حاولنا إرجاع أكثر آرائه إلى جذور وأصول سبقته ؛ كالآراء الكلامية (المعتزلة والأشاعرة والماتريدية) وهذا لا يعد عيباً إذ أن هذا يعد شيئاً طبيعياً ومتوقعاً ، فمن مِنَّا لم يتأثر بالسابقين ؟ ويكفى أن الشيخ محمد عبده بقدر ما كان متأثراً بالسابقين ، كان مؤثراً - كما أكدنا أكثر من مرة - فى اللاحقين.

لم نكن - إذن - مكتفين بعرض آراء الشيخ محمد عبده كما نجد ذلك فى العديد من الدراسات التى كتبت عنه ، بل أرجعنا الكثير من آرائه إلى أصولها الأولى .

ونرجو أن يكون هذا الكتاب تعبيراً عن المكانة الحقيقية للرجل الذى قدَّم الكثير لمصر وسائر بلدان الوطن العربى. نقول هذا رغم اختلافنا معه فى العديد من آرائه .

وإذا كان القدر قد شاء أن أكتب هذا التصدير فى ذكرى مرور قرن من الزمان على وفاة مفكرنا الكبير الشيخ محمد عبده ، فإنه لا يخالجنى شك فى أن روحه

التى صعدت إلى بارئها وخالقها سترفرف الآن فى سعادة حين تدرك أننا قد حاولنا رد الاعتبار إلى الرجل الذى ظُلم فى حياته إلى حد كبير ، كما تمت الإساءة إلى أفكاره بعد مماته من جانب أهل الجمود والتقليد وأنصار التخلف العقلى .. والله تعالى هو الموفِّق للسداد * .

عاطف العراقى

القاهرة - فى الحادى عشر من شهر يوليو ٢٠٠٥م

(*) أجد واجباً علىّ توجيه الشكر الجزيل ، الشكر بلا حدود ، لتلميذى وصديقى وزميلى الأستاذ الدكتور سيد عبد الستار ميهوب ، على ما قام به من دور فى ترتيب فصول هذا الكتاب .

obeikandl.com